محاضرة رقم 02

1-1 مفهوم الهوية في الفن

الهوية في الفن (ونقصد التشكيل) رافدُ أساس من الروافد المبلورة لهوية المجتمع وأصالته، ومرآة جمالية للتعرف عليه وعلى ذاكرته وتراثه وتاريخه، واستكشاف أعمال الأسلاف في تعقب الجمال وممارسة فنون استعراضه واستحداثه..

فكلما أمسى الفن خالصا وأصيلا، شكل درعا واقيا يستميت دون تبدّد وتبديد الهوية الجمعية، وبالأحرى الفردية: هوية الفنان ذاته.

حين يكون الفن والفنان أصيلين يشكلان حينئذٍ وعيا سليما معافى حاذقا متفطنا، ينتصب عاليا، متميزا ومتفردا في شموخ أصالته، قادرا على احتواء الوجود والجمال بأبعادهما المختلفة.. الفن الأصيل يقاوِم، في ذاته وبيئته، التخمرَ والتآكل بقوة التجدد، يضخ في الموات ما بهِ يغدو حيا ينبض فوّارا.. يخصب الوعي، ويُنضج الرؤية ويطرد غموضها بمسحه بالنور والإجلاء.

لكل فنان تشكيلي مسربه الفني المخصوص، نسقه وأسلوبه، يحملان بصمته التشكيلية الذاتية، شكلا ومضمونا: الفنية والإبداعية والفكرية والمعرفية والسيكولوجية... إلخ. وهي بصمة وُسِمت وتشبعت بكل تلك الروافد الثقافية ضمن موطنها المجتمعي الأصل، أي من حيث ينحدر الفنان. كما أنها، بشكل ما، تأثرت واستفادت من خصوصيات المعارف الغيرية بحكم تثاقف وتلاقح حتمي.. والبصمة تلك، هي التي تحدد ملامح التعرف على الفنان وعلى انتمائه، ومن خلالها يتميز الفنان التشكيلي عن غيره من الفنانين، وبها يتوحد، وبالأحرى ينسكب تميزه ذاك ليشمل موطنه، هو الآخر، ويبصمه.. البصمة الفنية "توقيع وجود فرداني"، يتبدى جليا من خلال خصوصيات الألوان والأشكال والبنيات، واختيارات الموضوع وطريقة اختبارها (القضايا والإشكاليات التي تستهدف مساءلتها ومقاربتها عملية الإبداع)... إلخ. فالقضايا تتباين وتتنوع بتنوع الأوساط: ثقافيا ومعرفيا وجماليا وسياسيا واقتصاديا وحضاريا... إلى غير ذلك. فمنجز الفنان موقف ذاتي إزاء الأشياء، وإزاء منظومة الحياة وتجلياتها وتمظهراتها ومخاضاتها المتنوعة..

اهتم الفنان والنحات والمعماري النهضويون، في الغالب، بالروحيات الدينية والمرويات الإنجيلية، وتميز فضاؤهم الفني بالترجمة التخيلية لتلك المحكيات والمرويات العقائدية، واستبراز روحانيتها وقدسيتها.. بعدها، ومع استرسال العقود والعقول، تغير الهم الفني التشكيلي تباعا عند الفنانين على خلفية تبلور فلسفات ومفهومات جديدة، خلخلت مجددة تلك القضايا والتصورات الدينية والفكرية والجمالية السالفة، وانبثقت عقبها أشكالٌ مستحدثة، شكلت من جديد منظومات أخرى؛ معرفية وحضارية. فتوالت المدارس

والتيارات الفنية، وكل حقبة تنقض سابقتها وتجدد، وتفتح آفاق الاختلاف وتجاوز الماضي والمعهود .ولقد شكلت الفلسفة، بشكل أساسي، عصب ومنطلق تلك التحولات، فضلا عن الأدب بشتى مجالاته.